

تفسير البحر المحيط

. @ 233 @

وروي عن ابن عباس ومجاهد وعلقمة أنهم قالوا : كل شيء نزل فيه : { يَذْهَبْكُمْ }
أَيْ يَهْلِكُ النَّاسُ { فهو مكى ، و { ذَلِكَ بِأَنَّ السَّادِّينَ كَفَرُوا } فهو مدني .
أما في { ذَلِكَ بِأَنَّ السَّادِّينَ كَفَرُوا } فصحيح ، وأما في { يَذْهَبْكُمْ }
أَيْ يَهْلِكُ النَّاسُ { فيحمل على الغالب ، لأن هذه السورة مدنية ، وقد جاء فيها يا أيها
الناس . وأي في أيها منادى مفرد مبني على الضم ، وليست الضمة فيه حركة إعراب خلافاً
للكسائي والرياشي ، وهي وصلة لنداء ما فيه الألف واللام ما لم يمكن أن ينادي توصل بنداء
أي إلى ندائه ، وهي في موضع نصب ، وهاء التنبيه كأنها عوض مما منعت من الإضافة وارتفع
الناس على الصفة على اللفظ ، لأن بناء أي شبيه بالإعراب ، فلذلك جاز مراعاة اللفظ ، ولا
يجوز نصبه على الموضع ، خلافاً لأبي عثمان . وزعم أبو الحسن في أحد قوليه أن أيافي
النداء موصولة وأن المرفوع بعدها خبر مبتدأ محذوف ، فإذا قال : يا أيها الرجل ،
فتقديره : يا من هو الرجل . والكلام على هذا القول وقول أبي عثمان مستقصى في النحو . .
اعبدوا ربكم : ولما واجه تعالى الناس بالنداء أمرهم بالعبادة ، وقد تقدم تفسيرها في
قوله تعالى : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } ، والأمر بالعبادة شمل المؤمنين والكافرين . لا يقال
: المؤمنون عابدون ، فيكف يصح الأمر بما هم ملتبسون به ؟ لأنه في حقهم أمر بالازدياد من
العبادة ، فصح مواجهة الكل بالعبادة ، وانظر لحسن مجيء الرب هنا ، فإنه السيد والمصلح
، وجدير بمن كان مالكاً أو مصلحاً أحوال العبد أن يخص بالعبادة ولا يشرك مع غيره فيها .
والخطاب ، إن كان عاماً ، كان قوله : { السَّادِّى خَلَقَكُمْ } صفة مدح ، وإن كان لمشركي
العرب كانت للتوضيح ، إذ لفظ الرب بالنسبة إليهم مشترك بين الله تعالى وبين آلهتهم ،
ونبه بوصف الخلق على استحقاقه العبادة دون غيره ، { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا }
يَخْلُقُ { ، أو على امتنانه عليهم بالخلق على الصورة الكاملة ، والتميز عن غيرهم
بالعقل ، والإحسان إليهم بالنعم الظاهرة والباطنة ، أو على إقامة الحجة عليهم بهذا
الوصف الذي لا يمكن أن يشرك معه فيه غيره ، ووصف الربوبية والخلق موجب للعبادة ، إذ هو
جامع لمحبة الاصطناع والاختراع ، والمحبة يكون على أقصى درجات الطاعة لمن يحب . وقالوا :
المحبة ثلاث ، فزادوا محبة الطباع كمحبة الوالد لولده ، وأدغم أبو عمر وخلقكم ، وتقدير
تفسير الخلق في اللغة ، وإذا كان بمعنى الاختراع والإنشاء فلا يتصف به إلا الله تعالى . .
وقد أجمع المسلمون على أن لا خالق إلا الله تعالى ، وإذا كان بمعنى التقدير ، فمقتضى

اللغة أنه قد يوصف به غير الله تعالى ، كبيت زهير . وقال تعالى : { فَتَدَبَّرَكَ اللَّاهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } ، { وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطَّيْنِ } . وقال أبو عبد الله البصري ، أستاذ القاضي عبد الجبار : إطلاق اسم الخالق على الله تعالى محال ، لأن التقدير والتسوية عبارة عن الفكر والظن والحسبان ، وذلك في حق الله تعالى محال . وكأنَّ أبا عبد الله لم يعلم أن الخلق في اللغة يطلق على الإنشاء ، وكلام البصري مصادم لقوله تعالى : { هُوَ اللَّاهُ الْخَالِقُ } ، إذ زعم أنه لا يطلق اسم الخالق على الله ، وفي اللغة والقرآن والإجماع ما يرد عليه . وعطف قوله : { خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ } على الضمير المنصوب في خلقكم ، والمعطوف متقدّم في الزمان على المعطوف عليه وبدأ به ، وإن كان متأخراً في الزمان ، لأن علم الإنسان بأحوال نفسه أظهر من علمه بأحوال غيره ، إذ أقرب الأشياء إليه نفسه ، ولأنهم المواجهون بالأمر بالعبادة ، فتنبههم أولاً على أحوال